



الفتوة عند العرب

تأليف الأستاذ عمر الدسوقي

للأستاذ إبراهيم الراجحي

الأدب ومضة من ومضات الحياة نلألاً خلال الظلام
وثبت أضواءها في طريق الركب ليسير على هدى ووعى .
والأديب هو ابن بيئته وأمنه ومجتمعه، ورسالته في الحياة رسالة عامة
لا تقف عند حدود الحارب الضيقة ، وليست رسالة الأديب هي
التي تنبع من نفسه وتعيش في نفسه فقط ، سواء أكان شاعراً
أم كاتباً فصاحاً أم مؤاماً ، وسواء أكان يستوحى الماضي المبيد
أم الحاضر المشاهد ، وإذا كان الإنتاج المكسب هو ما يتصل
بالحياة العامة ويواكب المجتمع فإن ما عدا ذلك إنتاج عالم يطهو
كما يطهو الطاجل على - طاج الماء ؛ حتى إذا مرت به المصانفة داب
ولم تثنى . لماذا يجب أن يكون لأديب والفكر كذلك ؟ لأننا
الآن عبيد أرقاء لا نملك من أمرنا شيئاً ، ويجب أن نبشش أحراراً
تتعرف في حياتنا وشؤوننا كما يتصرف البشر في حياتهم
وشؤونهم ، وعلى كل أديب عربي ومفكر عربي أن يكون في
رأس القادة ليشرك في معالجة أوضاعنا مالمحة واقعية، وإلا كان
أديباً تاهها ومؤلفاً - طاحياً لا يفكر ولا يحس ، أو يفكر ويحس
ولكنه ضيف الأذواق مشلول الحركة . ولأننا الحالمين لا تؤدي
إلى غاية ولا تصل إلى هدف

وإذا كان الشأن كذلك فما هي قيمة كتاب « الفتوة عند
العرب » ؟ وفي أي اتجاه يسير ؟

قبر أن يتحدث عن الكتاب أحد أن أشير إلى صاحبه .
وصاحبه هو أستاذنا عمر الدسوقي أستاذ الأدب العربي في كلية

دارالعلوم بجامعة فؤاد الأول . لقد اتصلت بالأستاذ الدسوقي
عن كتب ، وتحدثت إليه كثيراً وتحدثت إلى كثيراً ، فلدت فيه
مالم الله إلا في القليل ممن عرفتهم . لدت فيه روح القومية
العربية ، والاعتزاز بالعرب اعتزازاً يكاد يصل إلى درجة النلو ،
وأحبه على حق فيما يمتد ، فما كان العرب في ماضيهم وتاريخهم
العريق أمة نافهة لاشأن لها ، وإنما كانوا سادة أنفسهم ، وأسياد
غيرهم ، ولكنهم فقدوا أهم معجزاتهم يوم أتيح للعناصر التي اندست
في صفوفهم أن تتحكم وتسد ، ففقدوا شر رقدة تحت مطارق
المبيد والمهايك والأفاقين . حتى إذا أريد لهم التخلص من هؤلاء
كانت يد أخرى تستقبل الكرة لتلقفها فإدا بالعرب يخضون
خضوع المبيد لمستعمر آخر وسادة جدد وبقياء من أولئك المبيد
والمهايك والأفاقين ، حتى كاد يكفروا بتمتلون من العرب - الآن -
بمروستهم وتاريخهم ، وحتى أشاح بعض هؤلاء المتلمين بوجهه
عن تاريخ العرب ورائهم ، مندفا وراء العرب في كل شيء .
وحتى أصبحنا الآن في بلبلة فكرية وقومية نتيجة للاضطراب
السياسي والشور بالحبية من بقطتنا الأخيرة ، وليس لذلك من
سبب إلا لأن اندم العرب قد كدر ونجمد ، والنفس العربية
الأصيلة قد حثرت وضعت ، فلم يعد ذلك الدم الفوار ، ولا تلك
النفس النائرة الجامحة

يمثل هذا الشمرور والإحساس يندفع الأستاذ الدسوقي إلى
استيحاء الماضي المبيد ويضع كتابه « الفتوة عند العرب »
فيقص علينا من جديد تاريخ ذلك المنصر العريق من زاوية
واحدة لمها أهم الروايات من يريد أن يتحدث عن العرب ، وهي
زاوية الفتوة وما يتصل بها من مظاهر متشعبة تلتق عند نقطة
واحدة وإن تمددت من الأشكال والألوان

يقص علينا تاريخ العرب في فروسيهم وشجاعتهم ونحوهم
وكرمهم ، ويعرض علينا ألواناً من الأشخاص الذين كان لهم
شأن في الحياة العربية، الجاهلية والإسلامية، وألواناً من الشعر الذي
يمثل تلك الحياة في أهل مظاهرها

ويتحدث -- بعد المقدمة التي تشير إلى الحافظ على تأليف
الكتاب - عن الفتوة في معناها اللغوي، وعن الفتوة في المصر

الحديث في هذا الفصل إلى الأيوبيين الذين طلب منهم الناصر أن ينظموا في ثلاث فتيانه ، ثم المايك الذين جاءوا بدم وما كان من شأن هؤلاء في محاربة الصليبيين نتيجة لتسليمهم الرماية والصيد ، وكأنه أراد بهذا الفصل أن يجعل من فتوة الناصر لذين قد مدرسة تخرج فيها من جاء بعده من هؤلاء ، كما كانت مدرسة النبي الكريم ، إذا كان لابد من التشبيه

وينتقل بعد هذا إلى الفروسية عند الفريسيين ، وبوازن بينها وبين فتوة العرب ، ويمزج أكثر مظهرها لجيلية إلى الانتباس من العرب أيام الحروب الصليبية وفي عهد الأندلس ، وبدعم رأيه بالأدلة السادية الكثيرة

ثم يختم الكتاب بطائفة من الصور لفتوة العرب ، وهنا ينتقل بنا من الاستعراض التاريخي إلى الألحاح القصصي ، فيعرض لنا هذه الصور في إطار جذاب وخيال مبدع ، يدقنا إلى آفاق تمتد بامتداد الصحراء العربية وما فيها من خصائص ومميزات طبعت العربي على تلك الزايات التي تحدث عنها الكتاب في بدايته . ولا يسمي أن أحدث عن هذه الصور في كلمة قصيرة بل هذه ، بل ادعها لمن يريد أن يستمتع بها ويتصلاها كما أتبع لي ذلك

هذا هو الكتاب بوصفه الموحز ، وهو وصف لأظنه يستطيع أن يتحدث كما يجب من (٤٧٢) صفحة دعمت بالمصادر الكثيرة من عربي وأجنبي ونجحت ، فيها وفرة الاطلاع فجاءت تشوق طريقها من أعماق التاريخ إلى حيث تقف القافلة الآن

فهل نستطيع بعد هذا أن نقول : إن الكتاب من العرب في أقدم مصورهم وإلى العرب في عصرهم الحاضر ؟ وهل نستطيع بعد هذا أن نقول : إن الكتاب درس من دروس القومية العربية لمن يهتمون بالقومية ؟ أظننا نستطيع أن نقول ذلك عندما نتجاوز تلك الهوة التي فصلت بين قتين من قم الكتاب ، وهي هوة الصوفية ، وقد اندست هذه الهوة تفرغ نفسها بين القمتين بإجماع من المنهج التاريخي حسب ، كما اندست في حياة العرب فكانت أكبر مصدر تسمم به ذلك الجسم الفارغ السليم

الجاهلي ، ومظاهر هذه الفتوة في الشجاعة والكرم : كرم اليد التي لا تعرف البخل وإن لم تجد شيئاً ، وكرم القلب الذي يتسع للكبير والصغير ، وكرم العقل الذي لا يعرف البلادة والتقليد . بل العقل الذي يزن ويحكم ويفكر ، ويرى العقل الذي عبد الأصنام ثم حطها حين رأى أنها حجر لا يضر ولا ينفع . وفي حماية الضيف : الجار والمستضيف والأسير ، والمرأة قربت أم بمدت

و حين ينتهي من العصر الجاهلي يتحدث عن العصر الإسلامي والدعوة الإسلامية ، والكماح في سبيل هذه الدعوة ، والرجال الذين ضحوا من أجلها وزعيمهم فيها (سيد الفتيان) محمد (ص) . ولا ينسى أن يتحدث عن المرأة العربية في عنايتها بولدها وتنشئته على الفروسية والشجاعة والخلال التي يتصف بها أبوه أو خاله ، ويضرب لذلك أمثلة كثيرة وشواهد من الرجز الذاتي في ترقيع الفتيان

وعندما ينتهي من هذا العرض التاريخي الذي يفل عليه طابع الحماسة والإعجاب ؛ ينتقل بنا إلى فصل آخر يكاد يكون من التاريخ الجرد وإن تخللته أحياناً لمحات من التحليل والوازنة ، ينتقل بنا إلى الصوفية ، فهو بمجرد حيناً لأنها كانت رد فعل لحياة الترف والمجون التي انغمس فيها المسلمون أيام الدولة العباسية ، وبهاجها حيناً آخر لأنها آثرت الزهد في الحياة على الكفاح والنضال ، ثم يستعرض الفتوة عند بعض التصوفين وشيئا من تاريخهم ، وكنت أود ألا يشير إلى بعض أعمال الصوفية ، أو بالأحرى أعمال بعض الصوفية ، فإن الكتاب دروس أمليت لئس حياة العرب في عصرهم الحاضر وتذكرهم بماضيهم المتبدد . ولم يكن من المئين علينا أن نعيد ما سجله بعض المؤرخين من قبح ومشاحنات استغلها وأثارها رجال السياسة الذين يريدون أن يحكموا بأية وسيلة من وسائل التفريق ، معتمدين على فتاوى المميين وأصحاب الربط والتكيا من المراوش التنظيميين

ولنتجاوز هذا الفصل إلى فصل آخر وهو فتوة « المترفين » وتجل هذه الفتوة في الصيد والرماية ، وأصحاب هذه الفتوة من أرباب الثراء والجاه ، وأبرز مظاهر هذه الفتوة في عهد زعيمها الناصر لدين الله المعرف سنة ٦٢٢ هـ وكان لابد من أن يتسلل

ديوان علي بن الجهم

بجمع ونخبه المعروفة فليل مردم بك

للاستاذ عبد القادر رشيد الناصري

تفضل صاحب المعالي شاعر الشام الأستاذ الجليل خليل مردم بك سكرتير المجمع اللغوي بدمشق فأهدى إلى نسخة من ديوان علي بن الجهم الذي بذل جهداً مشكوراً في جمعه وشرحه وتحقيقه ، ونسخة أخرى من ديوان الشاعر الدوري الرقيق الملقب « بالوأواء الدمشقي » الذي قام بتحقيقه والتعليق عليه الدكتور الفاضل سامي الدهان . وكلا الديوانين كان آية في إتقان الطبع . ودقة الشرح . . وقد صرفت - رقم مشاكلي - وقتاً غير قصير حتى قتلتها دراسة وتعميماً ، ويسرني أن أقدم في هذه الكلمة التواضعية رأيي في الديوان الأول اقراء الرسالة القراء هنا وهناك ، على أن أعود إلى الديوان الآخر في فرصة أخرى

يقع ديوان علي بن الجهم في ٢٢٣ صفحة من القطع الكبير ونفع الدراسة التي كتبها الأستاذ مردم بك عن الشاعر في ٤٧ صفحة . وهي دراسة شاملة جامعة ، تطرق فيها الشارح إلى عصر الشاعر ونشأته وشعره ، ودراسته والظروف التي أحاطت به حتى مقتله ووفاته . وليس لي اعتراض على كل ما قاله الأستاذ مردم بك ، إلا إن الذي أفت نظري في هذه الدراسة الرواية التالية . .

قال الشارح في الصفحة « ٥ » من المقدمة « ولما بلغ السن التي يذهب بها الصغار إلى الكتاب ، بدأ يذهب كل يوم من داره في شارع « دجيل » ببغداد إلى كتاب في الحى يجمع بين صنائر الصبيان والبنات . وكان علي حين الوجه ذكي المؤاد كثير النشاط . ظهرت عليه مخايل النجابة منذ طفولته ، فكان يسير البيت ونبا وقفزا ولعباً وسجيجاً ، حتى أقلق والده بضوضائه وجلبته ، فسأل أبوه معلم الكتاب يوماً أن يحبه في الكتاب ،

فلما رأى على رفاقه ينصرفون إلى دورهم ؛ وهو محبوبوس ، ضاق صدره فأخذ لوحته وكتب فيها إلى أمه
يا أمتا أفديك من أم أشكرو إليك نفاظظة « الجهم »
قد سرح الصبيان كأنهم وبقيت محمورا بلا جرم
وبمت بالوح إليها مع رفيق له من الصبيان . قال علي « وهو أول شعر قلته وسمت به إلى أمي ، فأرسلت إلى أبي : والله لئن لم تطلقه لأخرجن حاسرة حتى أطلقه »

ومن حوادثه في الكتاب أن أخذ لوحه يوماً وكتب فيه إلى بنت صغيرة كانت معه
ماذا تقولين فيمن شفه مهر من جهد حبك حتى صار حيرانا
وإن البنت الصغيرة أخذت وكتبت نجيبة .
إذا رأينا محبا قد أضر به جهد الصباية أوليناها إحسانا
وهكذا بدأ يقول الشعر وهو صغير جداً ، ولعله كان دون عشر سنوات من عمره

فهذه الرواية التي بوردها الأستاذ مردم بك نقلاً عن طبقات الشعراء لابن المعتز والأغانى ومختصر طبقات الخنابلة أشك في صحتها بالرغم من المصادر التاريخية التي اعتمدها الشارح ، وشكى يقع على سن الشاعر حين نظمه الأبيات المتقدمة ، وهي العشر سنوات . إذ أن من المحال أن يستطيع طفل دون البلوغ أن يقول شعراً منظوماً موزوناً فيه معنى بصياغة عالية . . وهما يكن ذلك الطفل ذكياً فلا يتسنى له الإجابة في تلك السن المبكرة ، لأن الشعر موهبة وصنعة تحتاج إلى حذق ومران . ولدى شواهد كثيرة من أن غفول الشعراء ما نظموا الشعر الجيد قبل العشرين أبداً . . وقبل الاطلاع على نفاثس الشعر القديم وحفظه . لأن حفظ الشعر الجيد يربى الملكة ويقرى القابلية وبمعنى الناظم من الاختلاف في وزن الشعر ، وقد كنت أود لو أن معالي الأستاذ حين إيراد هذه الرواية أن يلمق عليها بالشك ، رغم ورودها في المصادر الآتفة الذكر .

ولا أظن أن هذا الاعتراض البسيط ، يحطم من قيمة الديوان

أو من الجهد الجبار الذي بذله الشارح حين مراجعته لشرائح الكتب لمتحقق بيت أو إثبات كلمة . فهو جهد يستحق عليه كل تقدير وإجلال . كما أنني معه عند شكك في نسبة القصيدة المنشورة في صفحة ٤٨ من الديوان والتي مطلعها .

سل الدع عن عيني وعن جسدي المضي

وهل لقيت عيني بمدكو غمضا

إلى علي بن الجهم لاختلافها عن أسلوبه ونفسه ، وخصوصا لما

فيها من ذكر القيروان كما جاء

وإني أرى بالقيروان أحبتي

وأعتاض من ضحك منبت به خفضا

ومدحه لأبي مروان

بجبل أبي مروان أعلقت عمروني

وحسبي إعلاق صريح الملا عمضا

ولا أشك مثله أنها موضوعة عن لسانه، لأن القارى لا يشعر

فيها بالمطرفة الجياشة التي يشمر بها مادة عند قراءته شعر بن الجهم وخصوصا قوله فيها

أقول وقد عيل اصطباري من التوى

وأصبح دمع العين للشوق صرفنا

كما قال قيس حين ضاق من الهوى

فلم يستطع في الحب بسطا ولا قبضا

« كأن بلاد الله حلقة خاتم

على فما تزداد طولاً ولا عرضاً »

فهذا شعر صناعة ، وهو أشبه ما يكون بشعر شعراء الفترة

المظلمة ، كما أنني مثله في أن القطعة الأخيرة المنشورة في صفحة

(١٩٦) للجاحظ لاللي بن الجهم وهما هي

يا نورة المجر جلوت الصفا لما بدت لي ليفة الصد

يا مئزر الأقسام حتى متى تنقع في حوض من الجهد

أوقد أنون الرسل لي مرة حنك بزئيل من الود

قالين قد أوقد حمامه قد هاج قلبي مسلخ الوجد

أفدخطني الصفا والهوى نخالة للناقض للمهد

وهو أشبه ما يكون بشعر أصحاب الحمامات منه بشعر شاعر

له منزلة عالية لدى الملوك كدلي بن الجهم .

هذه كلمة بسيطة أكتبها عن هذا الديوان الذي لولا جهود

مردم بك لم يحفظ قراء العربية به . إذ أن شعر ابن الجهم لم يجمع

قبل الآن؛ ولولا الأستاذ خليل ما أتضح له أن يكون بين أيدينا،

وخصوصا وأن أكثر قراء العربية لم يقرأوا من شعره إلا بعض

الآيات منشورة في بطون الكتب، منها القصيدة المشهورة للمحنة

بآخر الديوان والتي مطلعها

عيون المها بين الرصافة والجسر

جانبين الهوى من حيث أدري ولا أدري

أعدن لي الشوق القديم ولم أكن

سلوت ولكن زدن جرا على جمر

وهي قصيدة عاهرة يذكري أسلوبها القصصي المتبع بأسلوب

عمر بن أبي ربيعة في أقاصيصه الشعرية، ولعله نظمها تأثرا به حيث يقول

وما أنس م الأشياء لا أنس قولها

لجارتها : ما أولع الحب بالحر

فقال لها الأخرى فاصديقنا

معنى وهل في قتله لك من عذر

الح الحديث بينه وبين صاحبه وجارتها حتى يتخلص منها

إلى مدح المتوكل

ولكن إحسان الخليفة جعفر

دعاني إلى ما قلت فيه من الشعر

هذا ما عناني كتابته عن هذا الديوان، شاكر العلامة ردم بك

هديته الثالية، ومقدرا الجهود التي يبذلها أعضاء الجمع العلمي العربي

في سبيل إحياء التراث العربي، وطابا أشد الثب على صديق

الأستاذ الكبير محمد بهجت الأثرى سكرتير الجمع العلمي العراقي

على الكسل الذي لازمه ولازم أعضائه ، فالجمع وقد مرت على

تأنيسه سنوات لم يحقق ولم يطبع كتابا يستحق الذكر، مع أن

ميزانيته لا تقل عن أي مجمع عربي آخر . . . والذنب في كل ذلك

يمود إلى الانتحاب الخاطي الذي جرى بين أعضائه

عبد القادر رشيد الناصري

بغداد